

الشرف والسلطة في المغرب الأوسط الزياني

رضا بن النية

جامعة سفيان 2

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى معاينة التفاعل بين الشرف والسلطة في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني ، ورصد آليات استثمار سلاطينها - من ورثة الموحدين - للشرف الذي تحول فيها إلى "أيديولوجية سياسية" لتبرير اختياراتهم السياسية وتوجهاتهم المالية .

الكلمات المفتاحية : الشرف ، السلطة ، المغرب الأوسط ، العصر الزياني

Résumé

Il est communément connu que les mouvements réformistes dans le Maghreb - islamique – ont débuté dans le milieu rural - et qui s'est terminé par la la création de nouvelles entités politiques sur les traces d'autres mouvements et basées sur des doctrines religieuses orientales portant un projet réformiste et conduisant à une insurrection sociale critiquant le pouvoir et la gestion des crises de la communauté . L'époque Almohade voit la naissance d'un nouvel élément celui d'un mouvement évoquant la légitimité du pouvoir existant car associé à la descendance du prophète . On assiste aussi à l'émergence d'une nouvelle théorie politique de l'honneur (al sharaf) politique . Cette étude vise à présenter un aperçu de l'interaction entre al sharaf et le pouvoir au Maghreb Central à l'époque des Zianides. C'est une étude qui explique aussi les choix idéologiques et politiques de l'époque.

Mots clés : Al Sharaf , Pouvoir , Maghreb Central, L'époque zianide

Summary

Traditionally, most reformist movements in the Islamic Maghreb resulted in the appearance of new political entities . These were based on Oriental ideologies with reformist projects leading social mobility against the existing power and the way it managed crises that carved the cohesion of society. On the basis of the Almohad era, noble lineage became a crucial element in supporting the legitimacy of power Hence, the purpose of this article is to view the interaction between honour and authority in the Maghreb during the Zayyanid era and how honour was used as a political ideology to justify political and financial choices;

Keywords : Honour , Authority , Central Maghreb , Zayyanid Dynasty.

مقدمة

وقد جرت العادة أن الحركات التصحيحية التي انطلقت في معظمها من البداية ونجم عنها قيام كيانات سياسية جديدة على أنقاض أخرى متآكلة ، أن تستند إلى دعوات مذهبية مشرقية المنبت والمنهل تحمل مشروعا إصلاحيا وتقود حراكا اجتماعيا يقدح في السلطة القائمة وينتقد إدارتها للأزمات التي نخرت تماسك المجتمع .

ويقود هذا الحراك في العادة قبيل جديد من الأوساط المغمورة الذي مازال يحافظ على نقاوة عُصْبته ويتسم بوفرة عدده وقوة شكيمته وخشونة طباعه ، فكثيرا ما مكّنت هذه الخصائص العصبية الحاملة لها من حسم صراعها مع العصبية الحاكمة في الحواضر التي ركنت إلى حياة الدعة والانغماس في الملذات¹ في صورة الحركات التي قادتها كاتمة في كنف الشيعة الإسماعيلية وصنهاجة اللثام التي تبنت دعوة عبد الله بن ياسين.

وبدءً من العصر الموحي أنضاف عنصر جديد لدعم شرعية السلطة القائمة ارتبط بالنسب الشريف ، إذ لم يكتف المهدي بن تومرت بربط نسبه بالقرشية بل رفعه لمرتبة أعلى تتصل بالبيت النبوي² ، ولئن كانت مقتضيات المهدوية فرضت ادعاء هذا النسب فإنه من منظور آخر فتح بابا لنظريات سياسية جديدة أسهمت في إعادة ترتيب متغيرات الحقل الديني التي ستكون المحرك الفعلي للأحداث في المرحلة التالية

وتبعا لهذا الواقع ظل توظيف شعار الشرف خلال هذه الفترة صوريا ولم تترتب عنه تأثيرات سياسية واجتماعية بارزة ، ففي المغرب الأوسط - مجال دراستنا - تكاد تنعدم الإشارات إليه وما وجد منها يحمل دلالات سوسيو- دينية خالية من أية توجهات سياسية ، ونقل لنا في هذا المضمار الغبرين³ (ت 704 هـ/ 1304 م) بعض صور مكانة الشرفاء في بجاية ومظاهر تجميل الناس لهم ، كما هو مبين في الجدول التالي :

لا جرم أن الانتصارات التي أحرزها بنو عبد الواد في ابتداء أمرهم قد أسهمت في التوسيق لملكهم ، إلا أن أعقد ما أهمهم كان عسر التأسيس لوسط داخلي يوازن بين مصالح السلطة وطموحات النخب المتوثبة بشكل يكسب هذه السلطة شرعية سياسية ودينية ، ويضمن لها ولاء العصبية الكبرى وقرار العائدات الجبائية .

وعلى الرغم من قدرة مؤسسة الزاوية على احتواء هذه المبادرة وضمان نجاحها في ظل تجدرها السوسيو.روحي في أوساط المجتمع وتناغم أنشطتها مع مختلف فعالياته ، إلا أن السلاطين الزيانيين لم يأمنوا جانبها وأوجسوا من قدرتها على خلق سلطة موازية لهم تعارض توجهاتهم وتهدد كيانهم ، مما اضطرهم للتغيب بين الشرائح المغيبة عن بديل - يحظى بنفس الاحترام لدى الرعية ويكسب ثقتهم - يكون لهم سندا في وصد الأبواب أمام الزحف الصوفي ، ومُعينا في تدبير شؤون السلطنة ومباركة سياستها ، وأفرز هذا المخاض عن بزوغ فئة الشرفاء .

وعلى ضوء هذا المتغيرات تسعى هذه الدراسة لمُعاينة التفاعل بين الشرف والسلطة في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني ، ورصد آليات استثمار سلاطين هذه المرحلة لخطاب الشرف الذي تحوّل فيها إلى " أيديولوجية سلطة " لتبرير اختياراتهم السياسية وتوجهاتهم المالية .

1/ الشرف ومسألة الشرعية في المغرب الأوسط

شكّلت مسألة الشرعية هاجسا متجددا ظل يُورق تفكير حكام الغرب الإسلامي بصفة مستديمة طوال فترة العصور الوسطى ، كونها الوسيلة المثلى لكسب رضى الرعية وتأييد العصبية الكبرى ضد الحركات المناوئة ، وسبيلا يضمن لهم تزكية مشاريعهم السياسية ومباركة خياراتهم .

العالم	التاريخ	مجال نبوغه	الامتياز	الصفحة
عائشة بنت أبي طاهر عمارة بن يحيى الشريف	القرن 7هـ/13م	الأدب	كانت أديبة شاعرة حظيت بتقدير ابن الفكون وأعجب الغبريني كثيرا بخطها (خطت يتيمة الدهر للثعالبي).	ص/ 78 - 79
أبو عبد الله محمد الشريف	القرن 7هـ/13م	الفقه	كان خياطاً وتاجر صوف بسوق بجاية ورعياً لشرفه استثنائه أهل حرفته من أداء المكس	ص / 177
أبو الحسن الحرالي	ت 638 هـ/ 1239 م	الفقه	كان موقراً لآل البيت محترماً لهم يقف احتراماً لهم لكل من يقدم منهم على مجلسه .	ص/ 157

ثم أحقيتهم في الظفر بالإرث الموحدى - والتخفيف من حدة ضغوطاتهم العسكرية ، كما تشهد بذلك مؤلفات مؤرخيهم⁵ وشواهد قبور سلاطينهم (تشهد بخلافهم لكنها تنكر شرفهم = ليس بالضرورة أن يكون الخليفة شريفاً)⁶.
قطع الطريق أمام المعارضة الداخلية والفئات المتوثبة خاصة المتصوفة .

ضمان الاستقرار وقرار الأدعاءات الجبائية واستمراريتها مما يجعل الدولة في منأى عن الأزمات خاصة أمام ارتفاع النفقات العسكرية في ظل توتر علاقاتها الخارجية .

وبغض النظر عن ملابسات تبني الزيانيين لمسألة النسب الشريف وتوظيفه السياسي فإن الأمر الذي يستدعي المناقشة هو مدى مصداقية هذا الطرح ، وهل هو مرتبط بإحياء نسب تمتد جذوره إلى نسل علي وفاطمة رضي الله عنهما ، أم أنه انتحال للنسب الشريف (خطاب شرافي) اقتضته الضرورة السياسية ؟

2/ شرف بني زيان : إحياء أم إدعاء ؟

بدأت مرحلة صناعة الشرف الزياني منذ نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي ، وتضاربت بشأنه الروايات بين من يجعله شرف متأصلي القدم تمتد جذوره إلى القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي في أعقاب انقراض ملك الأدارسة ، وبين من ينفيه عن بني عبد الواد ويدرجهم ضمن أدعاء الشرف(المتشرفة)الذين استغلوا التطورات السياسية

ومع تداعي قوة الموحدين بعد موقعة حصن العقاب سنة 609 هـ/1209 م اندلعت حرب الوراثة بين الإمارات الثلاث التي قامت على أنقاضها ، ورغم حسم الحفصيين لمسألة الشرعية منذ البداية لصالحهم بفضل احتمائهم بالنسب القرشي وقوة عصبيتهم ، إلا أن هذا التفوق كان ظرفياً فما أن توفي المستنصر الحفصي(ت 675 هـ/ 1277 م) حتى أعيد طرح القضية بشدة في ظل منافسة زناتة لهم .

وكان السلاح الجديد الذي أشهره الزناتيون هو رفع " شعار الشرف " إلا أن أسلوب توظيفه تباين بين بني مرين الذين عمدوا إلى احتواء نخبة الشرفاء فقرّبوهم وأجزلوا لهم العطاء واستعانوا بهم في تزكية سياستهم العسكرية والمالية⁴ ، في حين اختصر بنوعبد الواد المراحل تبعا لتحولات الساحة السياسية فتبنوا النسب الشريف : صحيح أنهم لم يُدلووا بذلك صراحة ولم يستظهروا رسوم الإثبات التي كان يُعامل بها في مثل هذه المسائل ، إلا أن عدم نفيهم له وظهور كتابات بلاطية تزّوج لشرفهم وتسعى لترسيخه في المخيال الشعبي يزيد من فرضية تشجيع السلاطين الزيانيين لها أو أنها كانت يباعاز مباشر منمتهتحت تأثير جملة من العوامل ، أبرزها :

قلة بيوتات الشرفاء بالمغرب الأوسط مقارنة بإفريقية والمغرب الأقصى فلم يبق من خيار أمام أمراء بني عبد الواد إلا رفع نسبهم إلى العترة النبوية .

منافسة الحفصيين والمرينيين حول مسألة الخلافة-ومن

والاجتماعية التي شهدتها المنطقة لدعم مشروعهم السياسي .

أ/ مثبتو الشرف الزباني

تزعّم هذا التيار نخبة من العلماء الذين تدرجوا في خدمة الدولة الزيانية ، وتصدوا لمختلف الوظائف الإدارية (الكتابة والحجابه ...) والخطط الشرعية (الخطابة ، القضاء ، الفتيا ...)، وكانت هذه الصلة الوثيقة التي تربطهم بالقصر الزباني مدعاة للتشكيك في مصداقية روايتهم ، بل أن بعض مخالفهم جزم بأن مصدرها البلاط نفسه خدمة لأغراض سياسية داخلية وخارجية تمت الإحاطة بها آنفا .

وأول من طرق هذه المسألة هو الأديب والمؤرخ يحيى بن خلدون⁷ (ت 780 هـ/ 1378 م) الذي شغل منصب الكتابة في دولة أبي حموموسى الثاني (760 - 791 هـ/ 1359 - 1389 م) ، إذ أكد في المؤلف الذي وضعه له وأسماه "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وما حازه مولانا أبو حمومن الشرف الشاهق الأطواد" على صحة انتساب الزبانيين لآل البيت .

وتربط رواية ابن خلدون الشرف الزباني بشخص يعرف بالقاسم من فلول الأدارسة الذي تفرّقوا أوزاعا شرقا وغربا بعد انقراض ملكهم⁸ ، فنزل في بادية تلمسان بين بني عبد الواد فأكرموه وقدموه وصاهروه حتى كثر نسله وتشعبت فروعه⁹ (بنو طاع الله وبنو دلول وبنو مطهر وبنو وعزان وبنو معطي وبنو حجي) ، وتبركا به وتعظيما لنسبه جعلوا الرياسة في عقبه¹⁰ .

وتحسن الإشارة إلى أنه رغم اتفاق النسابة - حسب ابن خلدون¹¹ دائما - حول مصدر شرف بني زيان إلا أنهم اختلفوا في الفرع الذي ينحدر منه ، وربطوه بثلاث أوجه :

القاسم بن إدريس الأصغرين إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل .

القاسم بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل .

القاسم بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأكبرين عبد الله الكامل .

وإلى الطرح الأخير يميل يحيى بن خلدون لاشتهاره وإجماع النسابة عليه ، وقربه إلى الواقع لتوافقها الزمني مع تاريخ انقراض

دولة الأدارسة¹².

وعلى نهج ابن خلدون سار محمد بن عبد الله التنسي (ت 899 هـ/ 1493 م) الذي كان أكثر إلحاحا على انتساب الزبانيين إلى بيت النبوة ، وحسبنا قرينا على ذلك مؤلفه المعروف بـ " نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان " إكراما لولي نعمته المتوكل الزباني (866 - 879 هـ/ 1462 - 1475 م) وحيدا له على آلائه كما أخبر بذلك في مقدمة هذا الكتاب " ... عسى أن أقوم ببعض واجب حقه علي ... " ¹³ .

ولعل المميز لأسلوب التنسي في معالجة مسألة الشرف الزباني أنه أفرد قسما كاملا (يتفرع إلى سبعة أبواب) من مؤلفه لبيان شرف بني عبد الواد ، وألحق في مستهله نسب سلطان عصره المتوكل بالسلالة النبوية ثم عرّج على أصوله المشرقية ، ورغم أنه خص الباب السابع منه لـ " بيان شرف بني زيان وتتبع دولهم إلى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان " ¹⁴ إلا أن ما يُعاب عليه أنه اكتفى فيه بعرض بعض الإشارات القليلة المرتبطة بهذا الشرف ، وأهمل ذكر قرائن ثبوته وأوجه اتصاله بالدوحة النبوية للرد على المشككين فيه ، وكأني به أراد من خلال استرساله في ذكر مناقب ملوك بني عبد الواد - ونزر من الأحداث التي عرفتها دولتهم حتى عهد المتوكل - شرف الدنيا وما حاق بالزبانيين من رفاة وجاه ونعماء بعد ارتقائهم إلى مصاف الملك كما أشار إلى ذلك يغمراسنين زيان (633 - 681 هـ/ 1236 - 1282 م) " وأما الدنيا فلنلناها بسيوفنا " ¹⁵ .

ويبدو وأن يحيى بن خلدون وعبد الله التنسي قد استطاعا استقطاب بعض العلماء والمؤرخين الذين لهم صيت واسع في الغرب الإسلامي لدعم طرحهما بشأن الشرف الزباني ، فهذا ذو الوارتين لسان الدين بن الخطيب¹⁶ (ت 776 هـ/ 1374 م) الذي كانت تجمعه صداقة علمية وسياسية بابن خلدون يبارك هذه النسبة - رغم خلفياتها السياسية - في قصيدته السينية التي نظمها في مدح السلطان أبي حمو الثاني عندما أحس منه تغييرا تجاهه :

لترى دخيلا في بنيه دسيسا
تحمي الملائك دوحه المغروسا

والمنتمي العلوي عيصك لم تكن
بيت البتول ومنبت الشرف الذي

وعلى كثرة النسابة والعلماء والمؤرخين الذين انساقوا وراء مسألة ثبات الشرف لبني عبد الواد إلا أن طرقهم للمسألة ورد بشكل عرضي أو استكمالا لدراسة عامة أوفي معرض حديثهم عن خريطة انتشار الشرفاء في المغرب الأوسط ، وقد جاءت نصوصهم حولها مقتضبة وخالية من التفاصيل وهي في معظمها تقليد لأقوال ابن خلدون (يحيى وعبد الرحمان) والتنسي ، وأمام محدوديتها ووحدة مصدرها آثرنا سوقها في جدول على النحو الموالي :

العالم	تاريخ الوفاة	موطنه	مجال نبوغه	الفرع الذي ينتمي إليه الزبانيون	المصدر
لسان الدين بن الخطيب	ت 77 هـ / 1374م	الأندلس	أديب ومؤرخ	لم يخصص فرعا بعينه	أزهار الرياض ⁽¹⁷⁾ 1/254
أبو عبد الله محمد الشريف الحسني	ألف كتابه سنة 848 هـ / 1445 م	تلمسان	فقيه	محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل	ديوان الشرف ⁽¹⁸⁾ و. 28.
عبد الله بن محمد العبدوسي	ت 849 هـ / 1446 م	إفريقية	فقيه	شرفاء حسنينيين	روضة النسرين ⁽¹⁹⁾ / 162
الشيخ إبراهيم التازي	ت 866 هـ / 1462 م	وهران	فقيه	لم يخصص فرعا بعينه	النجم الثاقب ⁽²⁰⁾ ج 1/42
أبو زيد عبد الرحمان القيرواني	القرن 11 هـ / 17 م	إفريقية	فقيه	حمزة بن إدريس الأصغر	تحفة روضة الأزهار ⁽²¹⁾ و. 13 و .
محمد بن أحمد المقري	القرن 12 هـ / 18 م	تلمسان	فقيه	محمد بن عبد الله بن إدريس	الأنوار وكنز الأسرار ⁽²²⁾ / 120
العشماوي	1142 هـ / 1729 م	المغرب الأقصى	فقيه	القاسم بن عبد الله بن إدريس	التحقيق في النسب الوثيق ⁽²³⁾ و. 15 .
أبوراس الناصري	1238 هـ / 1323 م	معسكر	مؤرخ وأديب	القاسم بن عبد الله بن إدريس	لقطة العجلان ⁽²⁴⁾ / 147
أبو القاسم الزباني	1249 هـ / 1833 م	المغرب الأقصى	مؤرخ	محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل	تحفة الحاديا المطرب ⁽²⁵⁾ / 87
لسان الدين المشرفي	1313 هـ / 1895 م .	غريس	أديب ومؤرخ	محمد بن عبد الله بن إدريس	اليواقيت الثمينة الوهاجة ⁽²⁶⁾ / 18

فهو عند الله سبحانه ... " .

أن الشرف السياسي لم يلق بظلاله بعد على الحياة السياسية والاجتماعية خلال عهد يغمراسن بن زيان بدليل أن المصادر تهمل التلميح له حتى زمن أبي تاشفين الأول (718 - 738 هـ / 1318 - 1336 م) .

وإلى هذا الرأي مال صاحب " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " ³² - الذي يجعل من ترجمان العبر مصدرا له - ، وفيه أنكر نسبة زناتة إلى العرب وأسقط النسب الشريف عن فرع بني عبد الواد منها " ... ومن زناتة بنوعبد الواد ملوك تلمسان القائمين عليها الآن ... " ³³ .

أما محمد بن علي السنوسي ³⁴ (ت 1276 هـ / 1859 م) فيجعل من مصطلح بني زيان لفظا جامعا يطلق " ... على قبائل عديدة وأنساب مديدة منهم شرفاء وعرب وبربر ... " ، وينفي الشرف عن أمراء تلمسان من بني عبد الواد " .. وقد علمت أنهم بربر ليس لهم في العربية أصل فضلا عن الشرف " ³⁵ ، ويحصره في بني زيان الأدارسة القصبين ³⁶ الذين حكم أسلافهم إمارة تاقدامت ³⁷ بالمغرب الأوسط ، ودخلوا بعد سقوط الدولة الزيانية في حروب طويلة مع الوطاسيين ملوك المغرب الأقصى .

كما أن شواهد قبور سلاطين الدولة الزيانية - حسب الدراسة القيمة التي أنجزها Brosselard حولها - تدعم طرح هذا التيار ، إذ لا يوجد ضمن نصوص أنساب هؤلاء الحكام المنقوشة عليها ما يشير إلى أنهم ينحدرون من السلالة النبوية فقبر السلطان أبي حمو موسى الثاني مثلا نُقش على شاهده " ... هذا قبر مولانا السلطان أمير المسلمين الملك العادل الحافل ... مولانا أبوحموبن مولانا الأمير الشهير الكبير ... مولانا يعقوب برد الله ضريحه ... " ³⁸ .

وعلى الرغم من تعدد الروايات (التي لا يمكن أن نحملها أكثر من طاقتها) حول الشرف الزياني وتأرجحها بين النفي والإثبات إلا أن متون هذه النصوص تسوق لنا المسألة دون سند تاريخي أو شرعي يجعلنا نرجح هذا الرأي عن ذلك ، ويؤجل البت فيها إلى مراحل لاحقة وما ستسفر عنه عملية التنقيب في المخطوطات وأثار السلطنة الزيانية .

ويستشف من الجدول أن دائرة المؤيدين للشرف الزياني في اتساع مستمر وتعدت حدود انتشارها مجالات المغرب الأوسط ، وظلت في منحائها التصاعدي يتناقلها النسابة والمؤرخون على صورتها الأولى (كما وردت عند الذين شهروا لها أولا من غير تدليل أو تمحيص) حتى بعد انقراض ملكهم وزوال مبررات استثمارها السياسي .

ب/ نفاة الشرف الزياني

يستند أنصار هذا الطرح إلى المعطى التاريخي لتبرير موقفهم من مسألة النسب الشريف ، إذ يرفضون الخوض فيها مطلقا لأن مرور سبعة قرون كاملة عن ظهور الإسلام يجعل البت فيها أمرا معقدا والنتائج المترتبة عنها تقتفر إلى المصادقية ، ويقدم لنا دعاة هذا الاتجاه بديلا للشرف السلالي بالشرف المكتسب المقرون بالعلم ومن كبار رواده المقرري الجد ²⁷ وتلميذه عبد الرحمان ابن خلدون .

وتعكس حالة التقلبات في الولاء السياسي للأخوين ابن خلدون - وسعيهما لتحصيل منصب سياسي يليق بسبعتهما العلمية والسياسية - اختلاف نظرتيهما لمسألة الشرف الزياني ، فبينما قاد يحي التيار الذي بارك هذا التوجه راح عبد الرحمان (ت 808 هـ / 1406 م) يتزعم تيارا مناقضا شكك فيه في نسب بني القاسم من بني عبد الواد إلى البيت النبوي " ... زعما لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه .. " ²⁸ .

وبرّر عبد الرحمان بن خلدون ²⁹ موقفه الراض لشرف النسب الزياني بجواب يغمراسن بن زيان لما طرحت المسألة في حضرته " إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فنلناها بسيوفا ... " . صحيح أن جواب يغمراسن قد يفهم منه كما ذهب إليه كثير من الدارسين أنه إقرار ضمني بأنه لا حظ لبني زيان في الشرف ، إلا أنه لا يشير صراحة إلى رفضه مطلقا ³⁰ ، ويمكن حمله على وجهين :

- أن جواب يغمراسن يفصل بين شرف الدنيا من جاه وسلطان وعلو شأن الذي حاق ببني عبد الواد بفضل اعتلائهم سدة الحكم وانتصاراتهم الخارجية ، وبين شرف النسب الذي حسبه لا ينفع صاحبه إلا في الحياة الآخرة ، ويزكي هذا الطرح جواب يغمراسن بالصيغة التي أوردها يحي بن خلدون ³¹ " ... إن كان شرف الدنيا فهوما نحن فيه ، وإن كان القصد به شرف الأخرى

3/ السلطة الزيانية وخطاب الشرف

من شأنها أن تضبط أعدادهم وتحميمهم من المتشرفة وتحفظ لهم حقوقهم .

ولعل ما يبرر هذا كله أن السلاطين الزيانيين قد رفعوا نسلهم إلى الدوحة النبوية (على الأقل خلال مرحلة التأسيس) ، وإنما اقترنت حاجتهم إلى الأشراف بالقدر الذي يكفل لهم ترويض المعارضة والقبائل المتمردة ، ومباركة قراراتها وإجراءات إدارتها خاصة زمن الأزمات السياسية والمالية .

ومهما يكن من أمر فقد حاولت السلطة الزيانية استثمار الخطوة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشرفاء لدى العامة لتعبئتها لخدمة مصالحها ودعم مشروعيتها حكمها ، إلا أن هذا التوجه لم يكن دوماً ذا نتائج مضمونة إذ كثيراً ما توترت العلاقات بين الطرفين كما سيأتي بيانه .

أ/ سياسة الاحتواء

سلك الزيانيون منذ ابتداء دولتهم خطاباً دينياً محيناً لظروف ومتغيرات هذه المرحلة ، سعوا في بعض صورته إلى محاولة تجنيد الشرفاء واستدراجهم بما يضمن ولاءهم السياسي ووضعهم تحت الرقابة المباشرة للسلطة ، إلى جانب توظيفهم لخدمة مصالح دولتهم ، ومن مظاهر هذا الخطاب :

قبول شفاعتهم : دأب أهل المغرب الأوسط الزياني أمام جور عمال الدولة وكثرة المغارم غير الشرعية على الاستجارة بالشرفاء خاصة الأولياء الصلحاء منهم تبركا بهم وطمعاً في حمايتهم ، حتى أن الشيخ محمد بن يوسف السنوسي الحسني⁴¹ (ت 895 هـ / 1489 م) كتب يوماً " ... ثلاثين كتاباً من دون فترة ... "42 إلى الأمراء لقضاء حوائج الناس وفك كربهم رغم كراهته لذلك لأنها تشغله عن دينه وتلقين العلوم لطلابه .

ومن أكثر أولياء (زاده نسبه الشريف بركة على بركة = الشرف + الولاية) المغرب الأوسط الشرفاء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الناس ونجدة مسلوبهم ونصرة مظلومهم والعطف على مفروغهم الشريف أحمد الغماري⁴³ (ت 874 هـ / 1469 م) الذي كان منقطعاً للتعبد وخدمة العلم في زاويته بأحواز وهران من أعمال بني زيان .

فلما أطاح السلطان المتوكل على الله بالسلطان أحمد

يلمح الدارس لمستوى حضور الشرف في السياسة الزيانية تغيراً واضحاً في ملامح خطابها الشريفي تبعاً لمتغيرات الحقل السياسي لاسيما بعد استعادة الدولة لهيبتها وتوطيد أركانها ، إذ لم يعد الشرف بذلك المحرك الفاعل لمواجهة تحديات الداخل وتحركات الخارج ، وهو أشبه بانتهاء فترة الوصاية الزيانية على الشرف في المغرب الأوسط (حصر الشرف في بني زيان وتهميش الفروع الأخرى أو احتوائها) ، أو بالأحرى نحن أمام حدوث طلاق بائن بين الزواج السياسي بين الشرف والسلطة ، وصرنا نقر الأول في المتون المصدرية عن نخبة للشرفاء خارج دائرة الشرف الزياني بغض النظر عن طبيعة العلاقة بينهما (انتقلنا من شرف السلطة إلى ثنائية نخبة الشرفاء والسلطة على شاكلة النموذج المريني) .

إلا أنه على عكس المغرب الأقصى وإفريقية نلاحظ أن الشرفاء بالمغرب الأوسط على العهد الزياني لم يشكّلوا هيئة مؤطرة اتخذت طابعاً مؤسساتياً نظامياً لها حضور سياسي واجتماعي فاعل على ساحة الأحداث ، إذ لا تمدنا الروايات التاريخية إلا بنزر يسير من الإشارات على حالات متفرقة للتقارب بين الشرفاء والسلطة الزيانية أو التباعد بينهما ، وثبرز هذا الواقع جملة من المعطيات ، أبرزها :

أن معظم الأخبار التي ساقتها لنا المصادر التاريخية ومصنفات المناقب والنوازل عن شرفاء المغرب الأوسط ارتبطت بنماذج فردية أغلبها من الوسط العلمي والصوفي . ندرة الإشارات والتلميحات إلى مؤسسة نقابة الأشراف التي تعد فضاء رسمياً وروحياً لهذه الفئة التي تسهر على رعاية حقوقهم والدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية .

عدم وضوح السياسة الزيانية اتجاه الشرفاء³⁹ الذين كان اهتمام السلاطين بهم مناسباتي-زبوني حسب متطلبات الساحة السياسية والاجتماعية للمغرب الأوسط ، وعلى ضوءها تحدد الامتيازات التي تجود بها عليهم .

غياب دواوين إحصاء الأشراف⁴⁰ ضمن السجلات الرسمية للدولة - التي انتشرت لدى الحفصيين والمرينيين خاصة بعد ظهور فئة من المتسقين الذين اندسوا بين هؤلاء الشرفاء - التي

سبقت الإشارة إليه .

ويزداد حرص أحمد الغماري في الدفاع عن حقوق الضعفاء ورعاية مصالحهم وتفريغ ضائقهم إذا كانوا شرفاء من نسل النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسبنا مثالا على ذلك وقفته الحازمة مع شرفاء مغراوة في منطقة شلف الذين اشتكوا إليه " ... جور عامل وطنهم وأنه تنقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية ... "47 فاستشاط الشيخ غضبا وكاتب السلطان فيهم فنزل عند طلبه وأمر بعزل العامل وأعاد الاعتبار لشرفاء مغراوة وأوصى العامل الجديد بهم خيرا⁴⁸ ، فسر الشيخ من جوابه فشكر له سعيه وأرسل إليه سفرا للزمخشري في شرحه للآية " إلا المودة في القربى "49 ليطلعه على فضل من أكرم آل البيت وأحسن إليهم وأنشد يقول :

فرض من الله في القرآن أنزله
من لم يصل عليكم لا صلاة له

طلب السلطان أبي عبد الله (879- 910 هـ/ 1475- 1505 م) لقاء الشيخ محمد بن يوسف السنوسي الحسني وأمام اعتذار الأخير التمس السلطان منه أن يكتب له أدعية يتحصن بها ببركته من كل سوء فأجاب الشرفي السنوسي إلى ذلك⁵³ . حضور مجالسهم العلمية ، فقد كان السلطان أبوحمو الثاني يحضر أحيانا لمجلس أبي عبد الله الشرفي التلمساني ليشهد حلقات من تفسير القرآن⁵⁴ ، أما الإمام الشرفي السنوسي فكان يتحرج من حضور السلطان وحاشيته إلى مجلس إقراءه لأنه عادة ما يكون مناسبتيا ويرتبط بقضاء مآرب سياسية⁵⁵ ، كما قد يفسره البعض على أنه شكل من أشكال المبايعة للسلطان والولاء له (الاحتواء) .

أبو عبد الله الحسني سفيرا لأبي حمو موسى الثاني

ينتدب الملوك والسلاطين في العادة للمهمات الدبلوماسية الرسمية الصعبة أكفأ رجالهم لإعطاء صورة مشرقة عن الدولة وحكامها - " من شخصية الرسول يعرف سيده - " ، وأمنهم في الحفاظ على مصالحها ، وكذلك كان دأب السلاطين الزيانيين الذين كانوا أشد حرصا على ذلك لطبيعة

العاقل (834 — 866 هـ/ 1430 - 1462 م) لجأ كتابه وعماله وكبار موظفي دولته إلى دار الولي الشريف أحمد الغماري واستجاروا بحماه ، ولما جد المتوكل في طلبهم قال له الشيخ " ... إن الله أحسن إليك فأحسن لعبيده وأعفوا عن هؤلاء الولاة"⁴⁴ فعفا عنهم السلطان التماسا لرضا الشيخ وطمعا في بركة دعائه ، كما أثر عنه أن بركته هذه وصدق سريرته كانت سببا في افتكاك أسير من سجن أحد عمال السلطان بعد التجاء والده إليه⁴⁵ .

وكانت لكبير هؤلاء الفارين الناصر بن ربيعة استجابة مع أحمد الغماري مفادها أن أحد بني ورنيد أثقلت كاهله المغارم وعجز عن أدائها في وقتها فتعقبه جنود ابن ربيب ولم يمنعهم احتماؤه بحرم الشيخ من أخذه بالقوة فرد الغماري " ... هذا حرم فمن ضيعه لا بد من الالتجاء إليه ... "46 فكان من شأنه ما

يا أهل بيت الرسول حبكم
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم

التبرك بالشرفاء :

ربط ابن السكاك⁵⁰ في نصح ملوك الإسلام استقرار الدول وازدهارها بدرجة اعتنائها بالبيت ، فببركة نسلهم الطاهر يتوسع سلطانهم وتزدهر أيامهم وتدوم رياستهم ، وتقصر مدتهم وينحسر سلطانهم وتتكالب عليهم الأعداء ياهمالهم لحقوق آل البيت ومصالحهم .

وإلى جانب ما تجنيه السلطة الزيانية من إكرام الشرفاء سياسيا واجتماعيا ، فإن سلاطينها كانوا يدركون جدا بركة هذا النسل فحرصوا دوما على التقرب منهم تبركا بهم وطلبا لرضاهم ومساعدتهم في إدارة شؤون الرعية ، وإلى ذلك سعى المتوكل على الله بقبوله شفاعته أحمد الغماري في كبار رجالات السلطان أحمد العاقل في صدر دولته⁵¹ ، ومن مظاهر هذه السياسة :

مصاهرة الشرفاء استجلابا للخير وتبركا بعترتهم النقية الطاهرة ، واستمالة لها لإكساب شرعية لسلطنتها مثلما فعل أبو حمو موسى الثاني الذي صاهر الشريف محمد بن أحمد الحمودي الحسني التلمساني⁵² .

طلب الدعاء من صلحاء هذه النخبة وأوليائها ، ومن ذلك

ومصالحهم ، إلا أن ما بين أيدينا من نصوص ووثائق لا يرقى لرسم معالم لسياسة زيانية رسمية واضحة في منح الامتيازات لشرفاء الدولة وتراتبها لاسيما في ظل غياب السجلات الرسمية والإشارات الواضحة إلى وجود دواوين إحصاء بيوتات الأشراف وضبط امتيازاتها وتطهيرها من المندسين والأدعياء .

ويستشف من التلميحات القليلة المتناثرة بين نصوص المصادر الإخبارية ومصنفات المناقب إلى امتيازات الأشراف التي اجتهد سلاطين بني عبد الواد في منحها لشرفاء دولتهم (اضطرتنا محدودية النصوص وتخصصها إلى التركيز على نخبة هذه الفئة) أنها اتخذت أشكالا متنوعة انحصرت في :

الرعاية المادية⁵⁹ (منح الهبات ، ترتيب الجرايات ، وقف الأراضي والمحلات كأفراد والمعاصر والحوانيت الممتلكات على المؤسسات التي يديرونها من زوايا ومساجد ومدارس....) .
توليتهم للوظائف الإدارية والخطط الشرعية⁶⁰ واستخدام بعضهم في مهام دبلوماسية كسفراء لحمل "الرسائل للأمور المهمة..."⁶¹.

نصرة المظلومين منهم والاقتصاص من ظلمتهم كما حدث لعامل شلف الذي قصر في حقهم وأساء السيرة فيهم فعزله السلطان وأوصى خليفته بالإحسان إليهم وحفظ حقوقهم⁶².

خصهم بألقاب ترفعهم شأنهم وتميزهم عن العامة ، من مثل السيد والشريف... وهي مصطلحات تحفل مصادر المرحلة بها .

ب/ معارضة الشرفاء للسلطة الزيانية

تكاد تنعدم الإشارة في المصادر التاريخية والمراسلات الرسمية للدولة الزيانية إلى توتر العلاقة بين السلاطين والشرفاء اللهم بعض التلميحات المنعزلة التي تقتقر إلى صلة بينها ، وعلى قلة هذه النصوص يتبين للدارس أن معارضة الشرفاء للسلطة كانت في معظم الأحيان غير مباشرة ، وأن شرفاء الحاضرة التلمسانية ظلوا بعيدين عنها ويقترن ذلك أساسا باستفادتهم المستمرة من امتيازات بني عبد الواد ووجودهم تحت رقابتهم المباشرة ، كما أن كثيرا من أشكال هذه المعارضة اتخذ طابعا فردانيا خال من أي تأثيرات سياسية ، ولعل أبرزها :

العلاقات (متوترة في الغالب) التي تربطهم بدول الجوار .

وكانت نخبة الشرفاء في مقدمة هؤلاء المقربين من السلطة خاصة أهل العلم والصلاح الذين تعدت شهرتهم الحدود القطرية للسلطنة ، فهم بذلك يحظون بمباركة السلطة ويكسبون ثقة الطرف الآخر ، بدليل أن بعضا منهم حظي برعاية خاصة من الأمراء المرينيين بعد دخولهم تلمسان وتبعاً لما أوردته المصادر فقد حمل الفقيه محمد بن أحمد الشريف الحسني صفة "سفير دولة أبي حمو موسى الثاني" بامتياز الذي كثيرا ما أوفده في مهمات رسمية تستدعي أن يكون على رأسها اللبيب الراجح العقل ، ويعدّد لنا يحيى بن خلدون ثلاثة منها :

بُعث في أواخر جمادى الثانية سنة 763 هـ/1361 م لتوثيق

معاهدة الصلح وفداء الأسرى مع أبي الحسن المريني⁵⁶

أوفد للتفاوض حول الصلح الذي اقترحه أبو إسحاق بن أبي يحيى (الأمير الحفصي لبجاية) في جمادى الثانية سنة 764 هـ/1362 م لكن بعد فرار محمد بن السلطان أبي سعيد أرسل أبو حمو الثاني من يسترد أبا عبد الله الشريف⁵⁷.

أرسل رفقة محمد بن عمر البريطل إلى المغرب لعقد مهادنة مع بني مرين في 24 ربيع الأول 767 هـ/1365 م⁵⁸.

امتيازات الأشراف

اعتبر الكثير من الدارسين أن هذه المسألة هي عصب خطاب الشرف في الغرب الإسلامي قاطبة لما لها من تداعيات روحية ومادية على شرائح واسعة من المجتمع الزياني التي تباينت مواقفها منها – ولو أنها لا ترقى إلى مستوى التنظيم والتنوع والاستمرارية التي وجدت عليها في المغرب الأقصى وإفريقية - ، ففي الوقت الذي رأى فيها الشرفاء حقا شرعيا وبخاصة أن الصدقة لا تجوز في حقهم بالنص على مذهب الجمهور ، اعتبرت السلطة الزيانية التزاما دينيا وسياسيا يدعم شرعيتها ويوطد سلطانها إلا أنه كثيرا ما أرقق خزينتها لاسيما في أزمنة الأزمة ، وشكلت لفريق ثالث إغراء ماديا ومعنويا قاده المتشرفة لإعادة ترتيب تموضعهم الاجتماعي والسياسي في المجتمع الزياني .

وعلى الرغم من تأكيد مؤرخي البلاط الزياني على أن سلاطينه كانوا معظمين لآل البيت حافظين لحقوقهم

رفض عطايا السلاطين

قاد هذا التيار نخبة من الأولياء الشرفاء الذين فرغوا أنفسهم للتعبد وأعرضوا عن الدنيا وملذاتها ، ووهبوا وقتهم للعلم وقضاء حوائج الناس ، فزاد احترام الناس لهم وتعاطفت منزلتهم حتى أخرجت السلطة التي حاولت احتواءها واستثمارها لتمرير أيديولوجيتها ومخططاتها ، إلا أنها لم تجد قبولا لديهم لأنهم كانوا يعتبرون قادتها أهل دنيا قد ينجم عن مجالستهم وإتباعهم مفساد عظيمة .

ويشير محمد فتحة⁶³ أن ما زاد من قوة هذه النخبة وتعاطف هيبتها التوجه الجديد للتأليف المنقبية بعد العهد الموحي التي انتصر فيها أصحابها للأولياء (الأشراف والمتصوفة) - الذين كانوا قبلاً مضطهدين من طرف السلطة وتعرض بعضهم للسجن والمتابعة - ، لتشهد هذه المرحلة تعاطف هذه الكتابات التي تروج لكرامات الأولياء وتحذر من مخاطر تعدي الحدود معهم الأمر الذي عقّد من مهمة السلطة في تمرير خطابها الشرافي وشعرت بحاجز روحي - بشري يحول دون مراقبتهم ومعاينة مخالفيهم لاسيما في ظل كثرة مريديهم .

فعلى الرغم من الموقف الواضح لبعض عناصر هذه الفئة الراض للتعاطف مع السلطة إلا أن سلاطين بني عبد الواد لم ييأسوا من محاولة خطب ودهم على الأقل التماسا لبركة دعائهم وتلييننا لجانبهم وأمن شرهم ، فكثيرا ما سعوا لإقناعهم بقبول هداياهم وعطاءاتهم للاستعانة بها لقضاء حوائج الناس إلا أنهم ظلوا يرفضونها درءا للشبهات .

وكان الإمام محمد بن يوسف السنوسي الحسني أكثر هؤلاء عزوفا عن قبول الإعانات المادية من السلطة فكان " لا يقبل شيئا مما يأتي إليه من قبل السلطان وغيره من أقاربه وخاصته كالوزراء والقواد ونحوهم ممن يتعلق بالسلطان"⁶⁴ ، فقد حدث أن ساق إليه أمير زباني مالا كثيرا فرفض الشيخ أخذه منه حتى على سبيل الهدية فما كان منه إلا أن فرّقه على أتباعه⁶⁵ .

كما أرسل إليه السلطان أبو عبد الله كتابا يطلق فيه يده على أخذ جزء من غلات مدرسة الحسن أبران فامتنع الشيخ فأرسل إليه السلطان ثانية وأمام إصراره أجابه الشريفالسنوسي " فليرجع أمير المؤمنين سدّد الله تعالى خاطره من قبلنا ولا يتشوف منا إلى شيء من إمدادنا في العيش الدنيوي وإعانتنا

فنحن قد أغنانا مولانا تبارك وتعالى عن ذلك ومن لم يقنع في الدنيا بالقليل لم يقنع بالكثير"⁶⁶ .

ويكشف لنا هذا الوضع الراض للانسحاق وراء لخطاب الشرافي للسلطة الزبانية عن جرأة بعض الأولياء الشرفاء وترسخهم في المجتمع وأنهم صاروا مصدر رغبة وترقب من السلطة تجاه هذه الفئة ، التي تهادى تطاولها وأضحت ترفض حتى تسليم بعض مطلوبي السلطان كما حدث مع الشريف محمد بن يوسف السنوسي الذي رفض تسليم امرأة استجارت بداره رغم إلحاح السلطان على ذلك ، لكنه - أي السلطان - أضرر أمام تمسك الشيخ بموقفه إلى التفاوض عنه⁶⁷ ، كما أن من يتجرأ منهم على الاعتداء على حرمة هؤلاء الأولياء الشرفاء ستحل به الكائنة كما حدث لابن ربيب الذي أخذ مطلوبا للسلطان بالقوة من بيت الشريف أحمد الغماري فكان مصيره فيما بعد من مصير هذا المطلوب⁶⁸ .

جهاد الإسبان ... نقطة الخلاف

على الرغم من سقوط غرناطة في يد النصارى عام 897 هـ/1492 م إلا أن تحرشاتهم بالمسلمين لم تتوقف وظلت جيوشهم تشن غارات متعاقبة على سواحل المغرب الإسلامي ، وسقطت في أيديهم مدن إستراتيجية في المغرب الأوسط كوهران والجزائر - من أعمال بني زيان - منذ مطلع القرن السادس عشر

وأمام عجز الدولة الزبانية عن صد هذه الغارات وتقااعسها عن جهاد الإسبان لاسترجاع مدنها التي تم الاستيلاء عليها توترت علاقتها مع أشراف هذه الأقاليم خاصة بعد دخولها في شبه تبعية للنصارى⁶⁹ ويتجلى ذلك من خلال ضعف التنسيق بين الطرفين ، وعزوف سلاطين بني عبد الواد عن تقديم المساعدات المادية والعسكرية للمتطوعة الذين تكتلوا لمواجهة الإسبان خاصة في أقاليم السلطنة الشرقية فكان ذلك إيذانا بكسر التحالف (حتى ولو أنه أضحى صوريا في أواخر العهد الزباني) بين نخبة الشرفاء وسلطة بني زيان .

في ظل ضعف التأطير وقلة العتاد واستمرار الضغوط الخارجية اعتمد أهالي هذه الأطراف على المتطوعة الذين انتظموا في جماعات تتناوب على العسة (نظام محلي

فهذا الولي الصالح الشريف أبو عبد الله المغوفل يدفع بولديه للانضمام إلى الأتراك في مجاهدة النصارى وطردهم من سواحل بلادهم⁷⁸.

وعلى ضوء هذا الواقع الجديد صار أهالي الأقاليم الشرقية يرون أن الأتراك الأحق بحكم المغرب الأوسط لجهودهم في الدود عن حياضه ورد تحرشات النصارى به لاسيما في ظل تعاون الزيانيين معهم ، ولا أدل على ذلك من مساهمة بعض الشرفاء في الحملة العثمانية على تلمسان يتقدمهم ابنا الشريف أبي عبد الله المغوفل⁷⁹.

وانضم إلى الركب ولي مليانة أحمد بن يوسف الميلياني⁸⁰ (ت 931 هـ/ 1526 م) - المختلف في نسبته إلى البيت النبوي - الناقم على السلطة الزيانية بسبب إطلاقها يد اليهود في السياسة المالية للسلطنة ، وتنامت حدة التوتر بين الطرفين بعد تقاعس الزيانيين عن مناجزة الإسبان ودخولهم في طاعتهم ، الأمر الذي جعله ينضم في خلق كثير من أتباعه إلى حملة عزّوج على تلمسان⁸¹ ، ورغم انتصاره في البداية إلا أن أبا حمو الثالث (916 - 933 هـ/ 1516 - 1528 م) سرعان ما قلب الأمور لصالحه سنة 924 هـ/ 1518 م ، وانتهى أمر الميلياني إلى السجن ولم يفك أسره إلا على عهد السلطان المسعود حليف الأتراك⁸². ويبدو أن التقارب بين الأتراك والأشراف (وهو الآخر موضوع جدير بالدراسة) قد زاد تلاحما بعد سيطرة الأوائل على المغرب الأوسط وظهرت آثاره على الواقع مع مطلع الفترة الحديثة ، ويتجلى ذلك من خلال توسعهم في منح الامتيازات للأشراف وتنشيطهم لنقابتهم ، كما بدأت تبرز على عهدهم بعض التأليف التي تؤرخ لشرفاء المنطقة .

خاتمة

يتضح من خلال هذه الدراسة أن التفاعل بين الشرف والسلطة بالمغرب الأوسط خلال العصر الزياني أملت المتغيرات الجديدة التي طرأت على الحقل الديني في أعقاب سقوط الدولة الموحدية ، وعلى الرغم من أن التقارب بين الشرفاء والسلطين لم يُؤطر في هيئة مؤسساتية نظامية وطفى عليه الطابع الزبوني - المناسباتي إلا أنه أحدث الدكليك الذي كانت تحتاج إليه السلطة الزيانية لفرض خياراتها

(مستحدث) لرصد تحركات العدو والاستعداد لأي طارئ⁷⁰ ، وكان للأشراف دورا بارزا في دعم هذه الحركة وتأييدها .

ففي الجزائر وأحوازها قاد الأشراف الجعفريون (ينحدرون من نسل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه) يؤمهم الشيخ العالم عبد الرحمان بن محمد الثعالبي (ت 875 هـ/ 1471 م) الذي استغل مكانته العلمية ونسبه الشريف ليستحث الناس على مجاهدة النصارى⁷¹ ، واستعان بفضلائهم لإعانتهم على تبليغ رسالته وتحسيس الأهالي بخطورة الوضع " ولو أطلعتم على ما أطلعت عليه من التحريض لها وسعكم أن تشتغلوا بشئ من أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بألة الجهاد"⁷² ، وحتى يقوّي من عزيمتهم كان يدعم دعوته برؤيا عن النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فيها أنه " من عمل درقة - يعني للجهاد - فإنها تحول بينه وبين النار"⁷³.

وبغض النظر عن صدق هذه الرؤيا أم أنها كانت السبيل الأوحى لتهريب خطابه ولملمة الشمل وتشجيع الأهالي على الاستعداد الجيد لمواجهة الخطر الذي يتهددهم ، فإن إستراتيجية الثعالبي هذه ما لبثت أن أتت أكلها وتنافس القوم في البوادي والحواضر (حتى النساء منهم) على صنع درق العود المصنوعة من الصفصاف والفرنان التي أضحت الوسيلة الأنجع في ظل ضيق الوقت لمواجهة التحرشات الأجنبية .

وعلى عكس الجزائر لم تلق دعوة عبد الرحمان الثعالبي القبول الكافي في بجاية - الذي استنجد به بعض فقهاءها - ربما لبعده عنها ، وهو ما نلمحه في رسالته إلى الشيخ الفقيه أبي محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف " ... فما رأيت لكلامي تأثيرا كما أثر هنا ..."⁷⁴.

وللشرفاء الأدارسة أيضا إسهام في تأطير حركة الجهاد واشتهر منهم يحي بن عبد العزيز الفلبيتي⁷⁵ الذي نظم غوثية يستحث فيها كبراء فليطة (غليزان حاليا) على تأليب أهلها لمجاهدة النصارى ليواصل ابنه محمد بن عودة⁷⁶ مسيرته بعد وفاته ، كما كانت زاوية محمد بن علي مولى مجاعة قاعدة للاستراحة والتموين ، ومركزا روحيا يتبرك به المجاهدون لتحقيق النصر على الأعداء⁷⁷.

كما تعاون الشرفاء مع الأتراك أثناء فترة الحكم المزدوج الزياني- العثماني للمغرب الأوسط لصد الهجمات الإسبانية ،

وتجسيد مخططاتها على الجبهة الداخلية والتخفيف من حدة ضغوط دول الجوار على المستوى الخارجي ، وظل هذا التناغم في العلاقة بين الطرفين (خاصة في حاضرة تلمسان) إلى أن لاح الخطر الإسباني على سواحل المغرب الأوسط الذي كان موقف الزيانيين منه في مجمله سلبيا مما أثار حفيظة الشرفاء خاصة في الأقاليم الشرقية للدولة الذين حاولوا استغلال مكانتهم الاجتماعية والدينية لتعبئة الأهالي وتنظيم حركة الجهاد ضد النصارى واشتد ساعدهم أكثر بقدم الأتراك

الهوامش

- 1- ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمان بن محمد ، المقدمة ، تحقيق : خليل شحاذة وسهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001 (مواضع متفرقة من المؤلف) .
- 2- البيهقي أبوبكر الصنهاجي ، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور ، الرباط ، 1971 ، ص 12- 13
- 3- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970

- 4- محمد القبلي ، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ط 1 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 1987 ، ص 87-89
- 5- ابن خلدون أبوزكرياء يحي ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج 1 ، تحقيق : عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980 ، ص ، 190 ، وما بعدها ، التنسي محمد بن عبد الله ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان - مقتبس من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان - تحقيق : محمود بوعباد ، منشورات A . N . E . P ، الجزائر ، 2010 ، ص ، 119-120
- 6- M . C .Brosselard , Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni – Zeiyane , et de Boabdil dernier roi de Grande découvertes à Tlemcen , J . A , T 7, 1876 , P.5 - 201
- 7- يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص ، 190 ، لا يقدم ابن خلدون في هذا الباب أدلة دامغة في بيان شرف بني زيان الذي ربطه بشهادة السماع التي تعتبر في المذهب المالكي كافية لإثبات النسب الشريف . حول منزلة شهادة السماع في إثبات النسب الشريف ، راجع : البيجري بالمكتناسي محمد بن عبد السلام ، الإنصاف في القضاء بين النقيب وبين من انتسب إلى بيت النبوة من الأشراف ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط ، رقم 1994 ، ص ، و . 16 . طوما بعدها
- 8- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 9- كما توجد فروع أخرى من بني عبد الواد لا حظ لها في الشرف منهم : بنو ياتكتن وبنو لولو ومصحوجة وبنو تومرت . أنظر : التنسي المصدر السابق ، ص ، 119 ، قارن : يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ص ، 190
- 10- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 11- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 12- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 13- التنسي ، المصدر السابق ، ص ، 117
- 14- المصدر نفسه ، ص ، 121
- 15- ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمان بن محمد ، ديوان العبر والمبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 7 ، تحقيق : خليل شحادة وسهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001 ، ص ، 97
- 16- المقري شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج 1 ، تحقيق : أحمد السقا وآخرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1939 ، ص ، 254
- 17- المصدر نفسه .
- 18- أبو عبد الله محمد الشريف الحسني ، روضة الأزهار في التعريف بأل محمد المختار ، مخطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 2608 ، يختلف صاحب هذا المخطوط ، ص ، و . 28 . و عن باقي المصادر في الجهة التي وفد منها الشرفاء الزيانيون إلى تلمسان ، ويؤكد أن قدومهم إليها لم يكن مبكرا ، فقد كان حسبه جدهم زيان (ينحدر من ولد أحمد بن محمد بن سليمان وليس القاسم) تاجرا أمينا في مصر فقتل واستحوذ صاحبها على ماله وفر غلامانه إلى تلمسان ومنه يتفرع الزيانيون .
- 19- ابن سعد أبو الفضل محمد بن سعيد التلمساني ، روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، ط 1 ، الديوان الوطني للنشر والإشهار ، الجزائر ، 2004 .
- 20- ابن سعد أبو الفضل محمد بن سعيد التلمساني ، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب ، ج 1 ، مخطوط مكتبة الملك آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، رقم 1262 .
- 21- ابن أبي زيد القيرواني عبد الرحمان بن عبد الله بن محمد ، تحفة روضة الأزهار في تعريف آل النبي محمد المختار ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط ، رقم 2020 .
- 22- المقري أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي ، كتاب الأنوار وكنز الأسرار في نسب آل النبي المختار ، مخطوط الخزانة الحسنية ، الرباط رقم 2231 .
- 23- العشماوي أحمد بن محمد بن أبي القاسم ، التحقيق في النسب الوثيق ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم د 1351 - 23
- 24- لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من ملوك بني زيان ، تحقيق : حمداو بن عمر ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجزائر ، 2011 .
- 25- الزياني أبو القاسم ، تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب ، تحقيق : رشيد الزاوية ، منشورات وزارة الأوقاف ، المغرب 2008 .
- 26- لسان الدين العربي بن عبد القادر المشرفي ، ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد مولى مجاجة ، مخطوط خاص .
- 27- أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 5 ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1988 ، 281
- 28- عبد الرحمان بن خلدون ، المصدر السابق ، ص ، 97
- 29- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- 30- بعد استعراض ابن خلدون لمسألة شرف بني القاسم ختم بقوله " والله أعلم بصحته " وهو ما يفتح الباب أيضا للتأويلات ويجعل طرحه يكتسي طابع النسبية في نفي النسب الشريف عن الزيانيين . المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- 31- بغية الرواد ، المصدر السابق ، ص ، 205 ، ومن الغريب أن نفس المسألة (الشرف الميريني) لها طرحت على أبي الحسن الميريني وهو يحاصر تلمسان ، رد بجواب يقارب في معناه جواب يفمراسن ويترك تأكيده أو نفيه مفتوحا " ... هذا شيء إن كان على ما قلته فترجو النفع به عند الله في العقبى ، وإن كان غير ذلك فلا خير لنا في الشك بها فيه مطعن علينا ... " . راجع : ابن مرزوق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التلمساني (الجد) ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ،

- تحقيق: ماريا خيسوسبيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص ، 109
- 32- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1982 ، ص ، 177 .
- 33- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 34- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية ، ط 4 ، ليبيا ، 1966 ، ص ، 118
- 35- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 36- المصدر نفسه ، ص ، 119
- 37- حول إمارة تأقدمات الشرفية التي امتد مجالها من جبال الونشريس إلى صحراء المغرب الأوسط . أنظر: بن عودة بن إسماعيل ، الشجرة الثابتة في نسب شرفة فليطة ومناقب أوليائهم الشثينة ، مخطوط خاص ، ص ، 2-5 ، الدرر السنية ، المصدر السابق ، ص ، 119 وما بعدها .
- 38- Mémoire épigraphique, op. cit , p.58
- 39- القبلي ، المرجع السابق ، ص ، 87
- 40- حول جهود السلاطين المرينيين لإحصاء الشرفاء وتمييزهم عن المتشرفة . راجع: الزياني ، المصدر السابق ، ص ، 90 وما بعدها .
- 41- صاحب العقائد ، من أشهر علماء تلمسان ، له مؤلفات في التفسير والفلك والطب والتصوف ، عاش ما بين (832، 895 هـ) أنظر حوله : المواهب القدسية ، المصدر السابق ، حسن بوقلي ، محمد بن يوسف في الذاكرة الشعبية وفي الواقع ، الديوان الوطني للنشر والإشهار ، الجزائر ، 2003 .
- 42- الهلالي ، المصدر السابق ، ص ، و. 108. ظ
- 43- هو أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الرحمان بن يحيى ، من عرب رياح ، سمي بالغماري لسكناه إقليم غمارة ، وهو شريف من جهة أمه . حوله أنظر : ابن سعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ، 193
- 44- المصدر نفسه ، ص ، 220
- 45- المصدر نفسه ، ص ، 222
- 46- المصدر نفسه ، ص ، 220
- 47- المصدر نفسه ، ص ، 233
- 48- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- 49- سورة الشورى ، الآية 23
- 50- أبو عبد الله محمد بن أبي غالب المكناسي ، نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم في حقوق آل البيت الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام ، طبعة حجرية ، المطبعة الجديدة ، فاس ، 1898 ، 3 وما بعدها
- 51- ابن سعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ، 220
- 52- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن محمد ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق: محمد بن تاويتالطنجي ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، 2007 ، ص ، 64
- 53- الهلالي ، المصدر السابق ، ص ، و. 187 . و
- 54- التنسي ، المصدر السابق ، ص ، 190
- 55- الهلالي ، المصدر السابق ، ص ، و. 92. ظ
- 56- ابن خلدون أبو زكرياء يحيى ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج 2 ، تحقيق: بوزياني الدراجي ، دار الأمل ، الجزائر ، 2007 ، ص ، 223
- 57- المصدر نفسه ، ص ، 278
- 58- المصدر نفسه ، ص ، 334
- 59- المصدر نفسه ، ص ، 283 ، عبيد بوداود ، قراءة في أوقاف مساجد وزوايا تلمسان في العهد الزياني ، مجلة قرطاس الدراسات الحضارية الفكرية ، العدد التجريبي ، 2008 ، ص ، 26 وما بعدها
- 60- يحيى بن خلدون ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ، 215
- 61- التنسي ، المصدر السابق ، ص ، 189
- 62- ابن سعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ، 233
- 63- الامتحان المتبادل في علاقة الولي بالسلطان - ضمن كتاب السلطة العلمية والسلطة السياسية بالمغرب - ، ط 1 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 2012 ، ص ، 149-150
- 64- الهلالي ، المصدر السابق ، ص ، و. 61 . و
- 65- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
- 66- المصدر نفسه ، ص ، و. 61. ظ
- 67- المصدر نفسه ، ص ، و. 102. ظ وما بعدها
- 68- ابن سعد ، روضة النسرين ، المصدر السابق ، ص ، 220

- 69- عبد الله نجمي ، التصوف والبدعة بالمغرب — طائفة العكاكزة - ، ط 1 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 2000 ، ص 98-99
- 70- بن عودة بن سليمان ، المصدر السابق ، ص 15-17
- 71- استندنا في تقصي دور الأشراف الجعفرين في جهاد الإسبان إلى رسالة - بعث بها عبد الرحمان الثعالبي لأحد فقهاء بجاية يحثه فيها على تأليب الأهالي على الجهاد — عثر عليها أبو القاسم سعد الله في ثنايا مجموع مخطوط بدار الكتب المصرية ، وهي تقع في ورقتين ويعود تاريخ نسخها إلى القرن السابع عشر . راجع : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج 1 ، ط 4 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005 ، ص 201—211
- 72- المرجع نفسه ، ص 210
- 73- المرجع نفسه ، ص 209
- 74- المرجع نفسه ، ص 210
- 75- محمد شايب الدراع ، أعلام ومآثر فليته ، الملتقى المنعقد بغليزان يوم 29/06/2005 ، ص 25—26 .
- 76- ابن عودة بن إسماعيل ، المصدر السابق ، ص 158 وما بعدها ، غير أن بعض الدارسين يدخلون نشاطه الجهادي ضمن الفترة العثمانية على اعتبار أنه من مواليد 972 هـ . راجع : محمد شايب الدراع ، المرجع السابق ، ص 16-18
- 77- لسان الدين المشرفي ، المصدر السابق ، ص 32-33
- 78- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 177 ، محمد مفلح ، غليزان مقاومات وثورات ، دار الأديب ، الجزائر ، 2010 ، ص 24-25
- 79- سعد الله ، المرجع السابق ، ص 177
- 80- هو أحمد بن يوسف الملياني الراشدي شيخ الطريقة الراشدية (البوسفية) ، كان له نشاط سياسي بارز أثناء الصراع العثماني الزياني الإسباني على المغرب الأوسط ، واتهمه بعض معارضيه من العلماء بالإلحاد بسبب بعض آرائه الشاذة . حوله أنظر : الصباغ محمد بن محمد بن أحمد القلعي ، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد الراشدي النسب والدار ، مخطوط الخزنة العامة ، الرباط ، رقم ك 243 ، ابن الحاج موسى علي بن أحمد ، ربح التجارة ومغتم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة إلى ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دخيل مليانة ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 928
- 81- عبد الله نجمي ، المرجع السابق ، ص 100—101
- 82- محمد حاج صادق ، مليانة ووليتها أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989 ، ص 103